



يعلوني الألم، ويتملكني القدر، ويحيط بي الخجل، وأنا جالس في مكتبي أسطر تلك السطور، والسوريون في إدلب وجسر الشغور وبابا عمرو يكابدون عناء نزف الدم وتضميد الجراح بينما يحيطهم القصف والجوع والظلم، ولست أستطيع أن أخفف من محنتهم شيئاً!

إنني ما تجرأت على أن أمسك القلم لأكتب لأهلي في حمص إلا لأنها رسالة اعتذار، ولستنا للأسف نملك سوى الاعتذار.. !! إنها رسالة اعتذار لكل طفل أصبح من يومه يتيمًا لا يجد أباً، ولكل طفل صار شليلاً أو كسيحاً أو مبتور الأعضاء وهو في مقتبل حياته وزهرة طفولته..

رسالة اعتذار إلى كل أم ثكلى قد فقدت ولديها بصاروخ مجرم، وراحت صرخاتها وسط ضجيج الصرخات..، و إلى شخص راح يبحث عن بقايا جسد قريبه وسط الأشلاء..

رسالة اعتذار إلى كل حرة انتهك عرضها، ولكل أبية ساموها سوء العذاب، ولكل مريض فقد دواعه ولم يستطع الحصول عليه، فيعاني شدة الآلام، ولكل عائل أسرة قد فقد عمله ومصدر قوته، فيعاني كل حرقه إذ يرى أبناءه يتآلمون من الجوع..

رسالة اعتذار من الشعوب لا من الحكومات فهي غير مضطربة ولا مكرهه ولا ضعيفة لتعذر، إنها تستطيع العون وتقدر على الدعم ويمكّنها الدفاع، لكنها لها حسابات أخرى قد لا يكون من بينها وقف نزيف الألم في سوريا!

العالم كله يقف صفاً واحداً يتصرف بدم بارد أمام المستضعفين القتلى والجرحى في سوريا، بعضهم يعلن موقفه الخبيث - كروسيا والصين والجزائر- إعلاناً لا يُبكي في وجه صاحبه مزعة لحم من حياء أو إنسانية، والبعض الآخر يلبس قناعاً زائفاً قد تكشفت حقائقه جلية عبر أكثر من دليل.

الغرب أمام أعيننا يتواطأ مع الطائفة الشيعية، ويطأطئ الرأس أمام رغبات "إسرائيل" في الإبقاء على النظام النصيري الباطني الخبيث.

الأنباء تأتينا كل يوم بما يدل على ما نقول، البارجتان الإيرانية اللتان مرتا من قناة السويس على مرأى وسمع من إسرائيل، وموافقة وسماح من مسؤولين مصريين، لتسقرا في ميناء طرطوس مركز النصیرية في الشام. واللواء المدرع الإيراني الذي يقتحم على السوريين بيوتهم وبهدما فوق رؤوسهم، وضباط المخابرات الإيرانيون الذين يقودون

العمليات القذرة، والذين ألقى الجيش الحر القبض على بعضهم وعرضهم أمام الكاميرات.

وفي القدس الذي طالما أعلنت إيران أنها أعدته لفتح القدس، يستبيح الحرمات ويهتك أعراض أخواتنا الشريفات العفيفات أمام مرأى وسمع رجالهم المكبلين المقهورين، ثم يقتل الرجال أمام أعين النساء المهتكة أعراضهن، بينما الصرخة مكتومة في صدور الأطفال الصغار!

أمريكا من جانب آخر تكتفي بالكلمات المنمقات المشابه لكلمات النعي من القساوسة التي يقولونها على القبور والموتى، بينما تمتنع عن أي فعل مؤثر، فتمتنع عن حظر الطيران وتمتنع عن تسلیح المقاومة وتمتنع حتى عن عقوبات رادعة للنظام السوري.

فرنسا وأوروبا أيضا يعلنان عدم إمكانية التدخل بشيء لحماية الثوار والمستضعفين، وأن مفاوضاتهما هي لمجرد الإغاثة، فيكفيان أمام العالم بدور "الحانوتي" !!

ثم تأتي تصريحات وزير الدفاع الصهيوني باراك مطالبًا الغرب بتخفيف الضغوط على الجلاد بشار لا على الضحية، تليها الأنباء عن الطيران اليهودي الذي يقصف الثوار في حمص.

كل ذلك ونحن نشاهد المذبحة، وتعرض أمامنا الفضيحة ليل نهار، حتى مؤتمر تونس الذي أقيم لنصرة المستضعفين صار مؤتمراً "لأصدقاء بشار" !!

إن الكلمات لتأبى التعبير والألفاظ تمتنع عن البيان، ولأن الطرق مسدودة بلون الدم، بلون الألم، والجدران تهدمت، بعدما نخرتها معاول الألم واشتكت من جلد العدو وضعف الصديق، ولأن الشوارع السابحة في الظلام الدامس تاهت أسماؤها، وتشابهت، فالكل يؤدي لمثوى واحد هو مثوى النزف..

فيما أم الصغير الذي اغتالته دبابات الغل الطائفي القديم: قولي للجالسين فوق موائد بيع سوريا إن ابنك الجميل قد قتل، وهو يلقى صرخة من حنجرته الأبية في مظاهره الإباء..

كل ثلاجات الموتى قد امتلأت عن آخرها، وكل المستشفيات قد امتلأت بالجرح وبالأين..

مئات الشهداء وآلاف الجرحى تختلط دمائهم بدماء بعض، وتخلط منهم قطرات الدم و قطرات الدم المنهر من قلوب جميع الشعب المجرح بجرح الغدر.

كل شيء كما كان، الدبابات الحقود تصب جام أذها في كل صباح مكلوم على البيوت والطرقات، يسقط أطفال صغار، وشيوخ كبار، ونساء أرهقهن عناه الطريق، بين قتيل زفته الحور إلى الشهادة، وجريح لا يلوى على شيء سوى الشهادة..

الأمهات يظلن يبحثن عن بقايا جثث أطفالهن في كل مكان.. بجوار أطر السيارات، وأرصفة الشوارع، وأبواب الدكاكين المغلقة..

في صرخة الأم الثكلى.. انتظري قليلاً ليعود إليك طفلك الصغير، لابساً أحسن الثياب، اللون لون البياض، والثغر باسم مزهر، والروح ترفرف من حوله، لقد أسميناها "الشهيد".

جاء ليسعدك بخبر الثبات والإباء والانتصار، يقول لك: يا أماه: أقيت الحجر، وعدت كرجل!! عدت ببسملة على شفتي، يا أماه: إني الأمل، حتى لو مت، فانسجي من أنات موتي ثوباً جديداً وسميه باسم سوريا..

ويا شعب الشهداء: أيكم الشهيد القادر حتى نعد له أكاليل الانتصار؟! حتى نكتب له ألف قصيدة شعر أبياتها من لون حياة الأبرار..

إن المحنـة دوماً هي رحمـة الـقوـة، ومنطلقـة ولـادة الـانتـصار، وإن آتونـ الـآلام لـتنـصـهـرـ بـهـ الصـفـاتـ فـيـتـمـيـزـ طـيـبـهـاـ منـ خـبـيـثـهـاـ، فـتـنـقـىـ كماـ يـنـقـىـ الـذـهـبـ الإـبـرـيـزـ، فـلاـ يـبـقـىـ ثـمـ فيـ الـأـطـفـالـ بـعـدـ الـمـحـنـةـ إـلـاـ صـفـاتـ الـرـجـولـةـ وـالـعـزـمـ، فـلـاـ يـبـقـىـ فـيـ النـسـاءـ إـلـاـ صـفـاتـ الـفـضـيـلـةـ وـالـصـبـرـ وـالـقـنـاعـةـ، فـلـاـ يـبـقـىـ فـيـ الـرـجـالـ إـلـاـ الـكـرـامـةـ وـالـاسـتـعـلـاءـ فـوـقـ الـأـزـمـاتـ..

إن أظافر المحن الجارحة لتفقل حبلاً وثيقاً يربط المؤمن بالله، حين يرى ضعفه وقلة حيلته، ويدرك فقره وخور قوته، فيلجم إلى القوى العزيز ويقر له بكل حول وقوه وبكل قدرة وعزه وبكل قيومية وشهادة، فيسلم شأنه لربه، وتصبح حياته سابحة في يقين راسخ وتوكل مخلص.. تنتظر لحظة الانتصار..

ثم هاؤنتم يا رجال سوريا، وبعد أيام طوال تستقبلون يوماً آخر من أيام النزف، وكعادتكم، ترتفعون معه راية الانتصار، تزيينا كل أسماء الشهداء والجرحى والثابتين من أبناء ذاك الشعب الأبي الكريم.

لقد استمعت إلى تصريحات الطبيب عن الشهداء والأطفال وهو يقول: إن الجثث وصلت محترقة ومقطعة بشكل كامل، مما صعب التعرف على هوية بعض الشهداء..

وذكرت عندها مقوله عمر - رضي الله عنه - يوم لم يعرف أسماء بعض الشهداء.. فما زاد أن قال: "ولكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرفهم"!

فيما عمر بن الخطاب يا فاتح الأقصى، ومذل الظالمين وناشر العدل والحرية والكرامة:

هل أتاك نبأ الأمة بعد قرون؟! عرض مستباح، ودين مضطهد، وأمل مقاتل، وطفل ينتخب، ومسجد يتهدم،.. وآخرون يصطفون في طوابير العمالة، يتقوتون الخبز من أيدي ملوثة بدماء أبنائنا.. ويصافحون الخونة في الأروقة!!

إنها مقارنة تفرض نفسها في كل وقت وحين، بين قوم طابت أنفسهم لما عند ربهم، ورأوا الحياة كلها طاعة له وعبودية، فلم يهتم ذكرهم ولا علومهم فيها، فراحوا ينشرون معاني التضحية والفاء، يرتجون رحمته ويسارعون إلى جنته، وبين آخرين غرتمهم الأيام واجتالتهم ألوان الزخارف، وجذبهم بريق المال، واستكانة الراحة، وصولجان السيطرة على الناس، فذلوا لعدوهم، وقدموا له قرابين الولاء!

ثم أخبرت الأنبياء أن قادة الغل الحقود قد اتخذوا قراراً أن يستمر سفك الدماء، غير آبهين بذلك البركان المتزلزل في القلوب واللحوظ، غير آبهين بتلك المجازر، وأنهم أحكموا الحصار على حمص، وأغلقوا الطرقات، وقطعوا الكهرباء، وقصفوا المدارس، وسدوا الطريق إلى المساجد، واستهدفوا سيارات الإسعاف، وأن الطائرات التي قصفت الأطفال في الصباح، ستعود بالمساء، ترید إشباع النهم للدماء.

وأنتم أيها الفرسان: لقد علّمتم العالم معنى المعجزة عندما تحول إلى واقع يحيا، جسد مكبل وروح رفراقة، مولد جيش جديد وسلاح بلون جديد، وصاروخ مصنوع من اليد النازفة، وغضبة موقوتة ملؤها يقين وثبات، وتوكل وإنابة.. ورغبة في الخلود. لقد رقيتم مرقى سماوياً، وتركتمونا هاهنا، وحدنا، نعاني القيد وأسر الزخارف والشهوات، وتلملم في كل يوم بقايا الانكسار مصحوبة بثمن بخس مهين..

لكم نشعر بمرارة في حلوقنا وحسرة في مشاعرنا أنها لم نستطع أن نقدم سوى النذر النادر القليل، ولم نستطع أن نمسح دمعة طفل لفراق أبيه، ولم نستطع أن نعالج جرحاً نازفاً في صدر أبي صامد، ولم نستطع تقديم شربة ماء لحلق قد أكله الجفاف، ولم نستطع حتى أن نشارك في جنازة الشهداء.

إن اهتمامنا لأمركم ليس شأننا خاصاً بنا، وبكاءنا على آلامكم ليس مجرد عاطفة عابرة في صدورنا، وحرصنا على خيركم ليس فضلاً كامنا فينا، ورغبتنا في نصرتكم ليس صدقة نتصدقها، إنما اهتمامنا بكم واجب شرعي في أعقاننا، وبكاؤنا إنما هو على جراح أجسادنا التي إذا اشتكى منها عضو تداعى له سائرها بالحمى والسهور، ونصرتكم ديانة وثواب، وعزه لنا وكرامة، وحرصنا على خيركم هو حرص النفس على خير ذاتها..

فيما أيها الشعب الحبيب.. نستميحك عذرًا أنا لا نقدر لك سوى على ذاك القليل، ولكن عزاءنا أنه قليل قد قطعناه من جوف قلوبنا، دعاء وابتهاجًا، ورجاء وتضرعًا لله الكريم.

المصدر: موقع التأصيل

المصادر: